مفاهيم قرآنية في الحياة الزوجية
(1)

الزواج
كما يصفه القرآن الكريم

فايز بن سعيد الزهراني

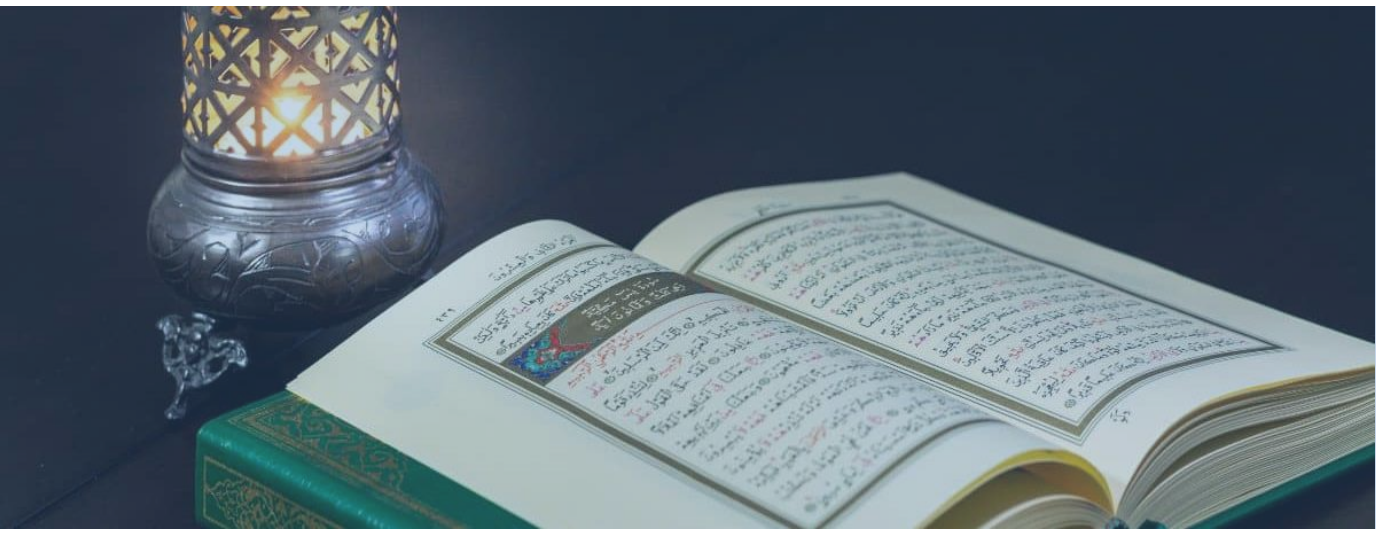

الزواج
كما يصفه القرآن الكريم

فايز بن سعيد الزهراني
fayzzhr1@gmail.com

٧ شعبان ١٤٤٤هـ

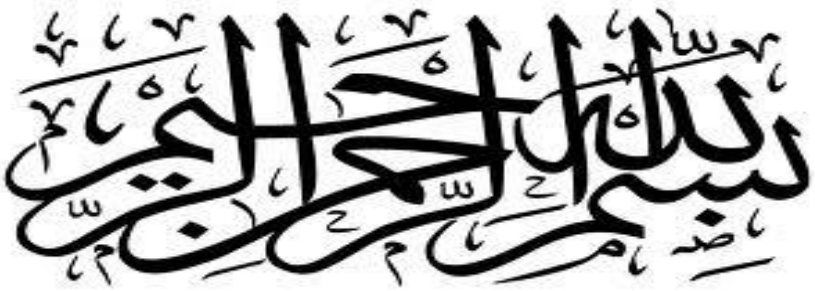
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مدخل	٤
الزواج سكن	٨
الزواج لباس	١٤
الزواج فطرة	١٧
الزواج ميثاق	٢٤
الزواج عبودية لله	٣٠
الزواج تكامل	٣٨

مدخل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

دائماً ما تحتل التعريفات محل الصدارة في التصنيف والتقعيد، وذلك لأهميتها فهي التي تصنع صورة المفهوم، وهي التي تجعل له إطاراً شاملاً لكل مفرداته وعناصره، وبهذا الإطار نستطيع أنْ نعرف ما يمكن دخوله في مربع المفهوم أو خروجه منه.

لكننا لا نجد القرآن ينص على تعريف محدد للأشياء، وإنما ينوع الحديث عنها وربما وصف بعض عناصرها، ويختار لها سياقات مختلفة، ونراه يضمنها جوانب أخلاقية وأبعاداً وجدانية، بغرض صياغة صورة كاملة للمفهوم تتسم بالشمول والكمال، ويعلوه البهاء والجمال.

والقرآن الكريم ليس لائحة تنظيمية جافة تُعبَّأ بالنصوص والبنود، وإنما هو

كتاب إلهي، منهج هداية وإرشاد، يراعي فطرة الإنسان ويتلمس وجدانه ويحيط أحكامه بالنبل والشيم ويزاوج بين شرائعه وأخلاقه، لذلك انتظمت تلك الهدايات في آيات وسور أعجزت الناس في بيانها وحسن سبكها وجميل رصفها وسمو بلاغتها.

وفي هذه المباحث التربوية القرآنية سنحاول رسم صورة للزواج؛ نتلمس معالمها من كتاب الله تعالى، نصاً أو استنباطاً، ونحاول فهمها من خلال السنة الصحيحة، والتي هي في حقيقتها شرح وبيان لما جاء في كتاب الله تعالى، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: (قواعد الإسلام أربع: دالٌّ، ودليلٌ، ومبيِّنٌ، ومستدلٌّ. فالدال: الله تعالى، والدليل: القرآن، والمبين: الرسول ﷺ، قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤]. والمستدل: أولو الألباب وأولو العلم الذين يجمع المسلمون على هدايتهم، ولا يقبل الاستدلال إلا ممن كانت هذه صفته)[١]. والسيرة النبوية – على صاحبها الصلاة والسلام – وهدي الصحابة الكرام رضي الله عنهم تعدان تطبيقاً عملياً لمفاهيم القرآن وأحكامه وتوجيهاته، فلذلك كان الرجوع إليها محتماً في فهم القرآن وتلمس معانيه.

ولعله من نافلة القول التذكير بأنَّ القرآن الكريم استعمل أحسن العبارات وأجملها عندما ناقش موضوع الزواج، وكنى ولم يصرح، في إشارة إلى أنَّ المسائل المتعلقة بالعورات والمواقعة ونحو ذلك ينبغي تعلمها وألا يكون الحياء مانعاً من التفقه فيها، وإنما يمنع فيها نزع جلباب الحشمة والحياء، ويندب فيها الحديث

(١) العدة في أصول الفقه ١/١٣٥.

المتأدب السامي. ولقد أحسن البخاري صنعاً حين تعرض لهذه المسألة فقال: باب الحياء في العلم، وأورد قول مجاهد: لا يتعلم العلم مستحْيٍ ولا متكبر، وقول عائشة رضي الله عنها: رحم الله نساء الأنصار؛ لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين، وأورد حديث أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنَّ الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غُسل إذا احتلمت؟ فقال النبي ﷺ: «إذا رأت الماء». فغطت أم سلمة، تعني وجهها، وقالت: يا رسول الله، وتحتلم المرأة؟ قال: «نعم، تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها»(١). ثم أعقبه باباً آخر فقال: باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال. وأورد فيه حديث علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال: كنت رجلاً مذَّاء، فأمرتُ المقداد بن الأسود أنْ يسأل النبي ﷺ، فسأله، فقال: «فيه الوضوء»(٢). فينبغي ألا يكون حياء المسلم مانعاً له عن التعلم والتفقه في المسائل الخاصة.

وأشير أخيراً إلى أهمية تكامل الموضوعات في مفهوم الزواج الذي بينه القرآن، فلا يكتفى بالأحكام الفقهية دون الآداب والتوجيهات، ولا يكتفى بتلمس المعاني دون النظر في الأحكام العملية، وهكذا. لذلك سأحاول أنْ أنظم عدداً من الموضوعات المفاهيمية المتعلقة بالزواج في ضوء آيات الكتاب العزيز، حسب ما ييسره الله، والله المسؤول أنْ يوفقنا جميعاً للتجرد من حظوظ النفس ولإصابة الحق، وأن يعينني على إتمام هذه الموضوعات.

---

(١) أخرجه البخاري ح١٣٠.

(٢) أخرجه البخاري ح١٣٢.

وهذا الموضوع أولها، وهو وصف الزواج في القرآن، ويمكن أنْ يكون إجابة على سؤال: كيف وصف القرآن الكريم الزواج؟ فاللهم سددني واهدني، وتقبل مني، وانفع بهذا المسطور كاتبه وقارئه.

الزواج سكن

جعل الله سكون الرجل إلى زوجته آية من آياته الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته وعظمته، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الروم:٢١]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف:١٨٩]. قال المفسرون: ليأنس بها ويأوي إليها[١]، يعني انَّ آدم عليه السلام لما أسكنه الله سبحانه وتعالى الجنة؛ زوَّجه الله ليسكن، وهذه ملاحظة مهمة فإنَّ آدم عليه السلام كان في الجنة، والجنة فيها كل شيء من النعيم، لكن لم يكن له فيها زوجة، فلذلك كان مستوحشاً، فخلق الله تعالى حواء منه لتكون له زوجةً وليسكن إليها، عن ابن عباس وابن

(١) معالم التنزيل ٣/٣١٣.

مسعود أنَّ الله تعالى أسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة؛ خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟ فقالت: امرأة. قال: ولمَ خُلقت؟ قالت: لتسكن إلي[1]. لم يستطع آدم أنْ يسكِّن نفسه بكل ما في تلك الجنة من ملذات ومشتهيات، ولم تطمئن نفسه حتى خلق الله له حواء فتزوجها، فأنِس بها، وآوى إليها، قال الزمخشري: (ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر، لأنَّ الجنس إلى الجنس أمْيل وبه آنس، وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه)[2]. فعند ذلك قال الله تعالى له: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾[البقرة:٣٥].

ولهذا المعنى يحب الرجل من زوجته أنْ تنشط في خدمته، ليس فقط لأجل حاجته المحسوسة لتلك الخدمة، بل لأنه يحب قُرب زوجته منه والتصاق بعضٍ من جسدها أو لباسها أو متاعها ببعض من جسده أو لباسه أو متاعه؛ ليأنس ويطمئن، والمرأة العاقلة تعي ذلك جيداً وتفطن له فلا تقصُر يدُها عن الحركة وإصلاح ملبس الزوج وأمتعته وكل ما يتصل به، إذ تدلها الحاسة الغريزية التي وهبها الله تعالى على ذلك، روت عائشة رضي الله عنها (أنها كانت ترجِّل النبي ﷺ وهي حائض، وهو معتكف في المسجد، وهي في حجرتها، يناولها

(١) جامع البيان ١/٥٤٨.

(٢) الكشاف ٢/ ١٨٦.

رأسه)[1]. وقالت: (فَتلْتُ قلائدَ بُدْن النبي ﷺ بيديَّ، ثم قلَّدَها وأشعرَها وأهداها)[2]. فإياك أنْ يقتصر فهمك للرواية على معنى الخدمة المجردة من المشاعر وحركة النفس من داخلها، ألا ترى أنَّ رسول الله ﷺ قبيل وفاته حين أراد السواك الذي كان يحمله عبد الرحمن بن أبي بكر سارعت عائشة إلى ترطيبه بفمها وتطييبه له؛ ليسكن إلى ذلك ولتسكن هي إليه، تقول: (دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مُسندته إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستنُّ به، فأبدَّهُ رسول الله ﷺ بصره، فأخذتُ السواك فقصمْتُه، ونفضتُه وطيبتُه، ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستنَّ به، فما رأيت رسول الله ﷺ استنَّ استناناً قط أحسن منه، فما عدا أنْ فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال: «في الرفيق الأعلى» ثلاثاً ثم قضى، وكانت تقول: مات بين حاقنتي وذاقنتي)[3]. وقد أشار الحافظ في الفتح عند هذا الحديث إلى قوة فطنة عائشة رضي الله عنها[4].

إنها ليست صدفة أنْ يموت النبي ﷺ في حجر زوجته بينما مئات الرجال الأشاوس ينتظرون منه إشارة أو كلمة ليقوموا بكل أنواع الطاعة والخدمة والإيناس والفداء والتضحية لأجل رضاه، إنها ليست صدفة؛ فإنَّ الرجل يكون أحوج إلى زوجته في هذه المواقف الصعبة ليسكن إليها، ليرتاح رغم الآلام،

---

(١) أخرجه البخاري ح٢٠٤٦ ومسلم ح٢٩٧.

(٢) أخرجه البخاري ح١٦٩٦ ومسلم ح١٣٢١.

(٣) أخرجه البخاري ح٤٤٣٨

(٤) فتح الباري ١٣٩/٨.

لتسند رأسه وظهره على صدرها، لتمسح أوجاعه بيدها، لتلين له السواك بريقها، فيجد البرد والطمأنينة اللتين تخففان عنه ما ألمَّ به. وقد كان ﷺ في حياته وفي صحته على هذا المسلك، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض، فيقرأ القرآن)[1]، بل سجَّل القرآن إسرار النبي ﷺ لبعض أزواجه الحديث، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾[التحريم:٣]. فلاحظ كيف يتعامل الرجل مع زوجته فينظر إليها باعتبارها مأوى وسكناً، حتى إنه ليبث إليها حديثه الخاص: شجونه وهمومه وأسراره ومعاناته، وغير ذلك. ولماذا يفعل ذلك وهو يعلم أنها في كثير من الأحيان لا تقدر أنْ تقدم له إسهاماً محسوساً متعلقاً بموضوع بثه وسره؟ إلا أنه يحب أنْ يستدفئ بتفاعلها مع حديثه وتعاطفها مع قصته، ويحب أنْ يتلمس مشاعرها بقلبه.

ومن هنا قيل: لا يسكن شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر[2]، ذلك أنَّ النفوس خُلقت متحركة بطبعها ومتهيجة ومستجيبة للمؤثرات المنفعلة داخلها ومن حولها، وكثير من المخلوقات على هذه الحال، فلا سكون أغزر وأحسن وأجمل من سكون الزوجين إلى بعضهما، فلله الحكمة البالغة.

وكما يتحقق السكن بالقرب والمشاعر والخدمة والحديث؛ يتحقق بالمباشرة والجماع، فبهما تُشبع الحاجة الغريزية التي أودعها الله في النفوس، قال القرطبي:

---

(١) أخرجه البخاري ح٢٩٧ ومسلم ح٣٠١.

(٢) معالم التنزيل ١/٢٠٧.

(فأول ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوة، وذلك أنَّ الفرج إذا تُحمِّل فيه هيَّجَ ماء الصلب إليه، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهياج)[1]. وهذه الحاجة الغريزية هي قوة الشهوة التي تهيج؛ فلا تسكن إلا بالجماع، وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ حين رأى امرأة، فأتى امرأته زينب، وهي تمعس منيئة لها، أيْ تدلك جلداً في أول دبغه، فقضى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه، فقال: «إذا أبصر أحدكم امرأةً فليأتِ أهله، فإنَّ ذلك يردُّ ما في نفسه»[2]، أيْ من غليان الشهوة واضطراب النفس الناتج عنها.

هكذا تسكن غريزة الرجل، ويسكن بصره، ويسكن سمعه، ويسكن وجدانه، وتطمئن نفسه، وهكذا تصبح الزوجة مأوى، وهذه فخامة المرأة: أنْ يجعلها الله سبحانه وتعالى سكناً لهؤلاء الرجال الأشاوس الذين منهم القادة والوجهاء، والذين منهم الجبابرة والزعماء الذين تخضع لهم قامات وكيانات... فتجدهم مرهفي الحس عند نسائهم، مسارعين لأهوائهن، متوددين لرضاهن! وليس هذا من بدع زماننا، فالتاريخ طافح بأخبارهم.

ولا تستغرب كون المرأة سكناً لزوجها، فإنما ألفنا النظر إلى مشاهد الحياة المتكررة والمتضمنة نحواً من هذا، فنحن نرى الأم وهي مأوى لأولادها -وإنْ كبروا- دون استغراب، فهذه عظمة الأم في الحقيقة، وهكذا خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون بهذا النظام، وجعل هذه الشهوة مفتاحاً لسلوك الحياة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٧.

(٢) أخرجه مسلم ح١٤٠٣

السوية.. للحياة الحقيقية.

الزواج لباس

في موضع آخر من القرآن الكريم نجد الله تعالى يصف كلاً من الزوجين بأنه لباس لزوجه، فيقول الله عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة:١٨٧]. فوصف الزوجين باللباس وصف عجيب، فإنَّ أصل اللباس هو ما يشتمله الإنسان على جسده من ثياب. وكلام أهل التفسير في هذه الآية يدور حول ثلاث معانٍ متقاربة[١]:

الأول: بمعنى أنَّ كل واحد منهما جُعل للآخر لباساً لتجردهما عند النوم، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه والتصاقهما بحيث يصبح كل واحد منهاما في منزلة الثوب الذي يلبسه، قال الربيع بن أنس: هنَّ فراش لكم وأنتم لحاف لهنَّ. وهذا معروف في لغة العرب، لذلك استشهد أهل اللغة والتفسير

(١) تفسير الطبري ٢٣١/٣، تفسير ابن أبي حاتم ٣١٦/١، تفسير البغوي ٢٠٧/١.

بقول نابغة بني جعدة:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنَّت فكانت عليه لباسا

الثاني: بمعنى السكن، فيكون كل واحد منهما لباساً لصاحبه بمعنى سكونه إليه، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم، كحال الإنسان إذا اشتمل ثوباً فإنَّ هذا الثوب محيط به فكأن اللابس استقر في ثوبه، وأبين ذلك حالاً حين المواقعة، وقد أشار إلى ذلك عبد الرحمن بن زيد.

الثالث: بمعنى الستر، فكل واحد من الزوجين ستر لصاحبه عما يسوء، لما يُكسبه الزواج لكل من الزوجين من العفة والشرف ورفيع الأخلاق والتسامي عن الرذائل ودنيء الخلاق، وستر لهما أثناء الجماع والمواقعة والملاعبة.

واللباس يحمل كل هذه المعاني، والعرب تسمي الزوجة لباساً وإزاراً، لما يتضمنه من كثرة الالتصاق والمخالطة والسَّتر، والعرب تصف الناس بأنواع اللباس، بحسب موقع ذلك الوصف، بل إنَّ النبي ﷺ قال في خطبته للأنصار عقب حنين: «الأنصار شعار والناس دثار»[1]. والشعار والدثار أثواب تُلبس؛ فالشعار الثوب الذي يلي الجسد، والدثار الذين يكون فوق الشعار، ومعنى الحديث: الأنصار هم البطانة والخاصة والأصفياء وألصق بي من سائر الناس[2]. فانظر كيف أعلى من شأنهم بتشبيههم باللباس الملاصق للبدن. ولا نزال نسمع هذا الحرف في القبائل العربية إلى اليوم، فيقولون: فلان لباس جنب، وفلان

(١) أخرجه البخاري ح٤٣٣٠، ومسلم ح١٠٦١.

(٢) شرح النووي ١٥٧/٧.

عصابة رأس، ويقصدون بذلك الثقة في صحبته وقربه وأنها محل الثناء والإعلاء.

وقوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾[البقرة:١٨٧] نزلت في سياق أحكام الجماع في رمضان، فالرفث: الجماع[١]؛ أحله الله تعالى للزوجين في الليل من رمضان، وبين أنه تعالى أحله رحمة بهم لأنهما لشدة مخالطتهما ببعضهما في هذا الوقت يشق عليهما التحرز منه، فلذلك شبههما باللباس لبعضهما، فكل من الزوجين ستر للآخر حين الجماع، وستر له عن الآخرين، وستر للشهوة أنْ تطفو فتظهر أعراضها للآخرين، وهي حال لا يليق بها إلا الستر، ومن ثم جاءت آدابٌ في الاستئذان.

(١) جامع البيان ٣/٢٢٩.

الزواج فطرة

القرآن يتحدث عن الزواج باعتباره فطرة خُلقت في الناس في أصل تكوينهم، حيث يقول المولى سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الروم: ٢١]. فلستم أنتم الذين اخترتم هذا الشيء، أو أبدعتموه، أيْ أنه لم يصدر قانون صنعته البشرية باستحداث علاقة إنسانية تسمى الزواج؛ على سبيل المثال، ولم يكن الزواج نتاج فكري أنتجته أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات القديمة، وإنما هو فطرة جعلها الله في الأحياء، ومنذ أنْ خلق الله آدم خلق في نفسه الحنين إلى الزواج، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[النساء:٢٨]، قال طاووس: (في أمور النساء، ليس

يكون الإنسان في شيء أضعف منه في النساء)[1]. ولذلك كان آدم –وهو في وسط الجنة– يشعر بالوحشة، لأنَّ الله فطره على ألا يأوي ولا يسكن إلا إلى زوجة، فالزوجة إذاً هي السكن الكبير فطرة، والناس حين يتزوجون ويحافظون على تنمية الزوجية في مجتمعاتهم إنما يعملون بالأصل المشترك بين البشرية، يعملون بالفطرة؛ والفطرة هي لب الدين.

وبالتالي هذه الدعوات اليوم؛ التي تريد أنْ تنقض هذه الفطرة أو تشوهها وتخربها وتفسدها هي في الحقيقة تحاول إفساد فطرة الناس وتخريب غرائزهم، وفي هذا إفساد للحياة والأحياء، فكيف يتحقق السكن والاستقرار حين يفضي اللوطيون "الشواذ" بعضهم إلى بعض؟ وكيف يمكنهم الوصول إلى روح الزوجية وحقيقتها الإنسانية؟

وأولئك الذين يمتنعون عن الزواج رغبة عنه، واستحساناً لما هم عليه من حال، أو خوفاً من تبعاته.. كلهم مخالفون للفطرة الصحيحة، حتى تلك الفتاة التي استغنت بوظيفتها أو بما تحصل عليه من مرتبات مالية، بل حتى تلك المرأة التي اكتفت بانشغالها بطلب العلم والدعوة إلى الله عن قبول الزواج بمن لا يُردُّ شرعاً قد انحرفت عن طريق الفطرة.

لا شك أنَّ هذه الدعوات هي من كيد الشيطان وخطواته التي أقسم على أنْ يغير بها فطرة الناس التي يدينون بها، فقد أخبرنا الله تعالى عن قسمه فقال تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ

(١) جامع البيان ٦/٦٢٥.

وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾[النساء:١١٨-١١٩]. وتغيير خلق الله يعني تغيير فطرته، فإنَّها من خلق الله، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[الروم:٣٠] فسمى الفطرة هنا خلق الله.

فإقبال الشاب والشابة على الزواج عمل إنساني صحيح، فيه تحقيق للفطرة، وانسجام مع نظام مخلوقات الله تعالى المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[الذاريات:٤٩]، قال البغوي: (صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبر والبحر، والسهل والجبل، والشتاء والصيف، والجن والإنس، والذكر والأنثى، والنور والظلمة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والحق والباطل، والحلو والمر)[1]، وفيه أيضاً مراغمة للشيطان وإغاضة له ودفع لصائلته وردٌّ لكيده وإفساد ليمينه. قال ابن القيم: (فهذا الوصال لما كان أحبَّ شيءٍ إلى الله ورسوله؛ كان أبغض شيء إلى عدو الله، فهو يسعى في التفريق بين المتحابين في الله المحبة التي يحبها الله، ويؤلف بين الاثنين في المحبة التي يبغضها الله ويسخطها، وأكثر العشاق من جنده وعسكره، ويرتقي بهم الحال حتى يصير هو من جندهم وعسكرهم، يقود لهم، ويزين لهم الفواحش، ويؤلف بينهم

(١) معالم التنزيل ٣٧٩/٧.

عليها)[1]. وهو يشير في هذه المقارنة إلى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت» قال الأعمش: أراه قال: «فيلتزمه»[2].

والحب بين الزوجين فطرة كذلك، ولذلك امتن الله بأنْ جعله بينهما في قوله جل شأنه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١]. والمودة هي المحبة، قال البغوي: (ما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر)[3]، أي أنَّ كل واحد من الزوجين قد أحب الآخر أشد ما يكون الحب بين الناس، ولذلك لما سأل عمرو بن العاص رسول الله ﷺ من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة». فقال: من الرجال؟ قال: «أبوها»[4]. وهذا حب فطري محمود.

لكنها ليست كأي محبة، بل هي خالصها وأجملها، وهي التي تحمل في طياتها معاني الخير، لذلك عرفوا الود بأنه: الحب يكون في جميع مداخل الخير[5]. قال ابن القيم: (وأما الود فهو خالص الحب وألطفه وأرقه)[6]. وقد اختار الله هذا الوصف في سياق الامتنان. ومن ذلك أنك تجد كلاً من الزوجين

---

(١) روضة المحبين ص٣١٧.

(٢) أخرجه مسلم ح٢٨١٣.

(٣) معالم التنزيل ٦/٢٦٦.

(٤) أخرجه الترمذي ح٣٨٨٦ وابن حبان ح٧١٠٧، وصححه الألباني في التعليقات الحسان ح٧٠٦٣.

(٥) لسان العرب (ودد).

(٦) روضة المحبين ص٧٤.

قبل الزواج ولا رابطة قلبية بينهما، فإذا ما عُقد النكاح مالت القلوب إلى بعضها وامتلأت حباً مجللاً بالرحمة والعطف، وهو يختلف عن ذلك الحب الناتج عن علاقة محرمة تكون بين الرجل والمرأة؛ فإنه لا يصل إلى سمو محبة الزوجين، بل هو حب مبتور سرعان ما تتلاشى وشائجه الضعيفة.

وقد كان النبي ﷺ يصرح بحبه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة وإني لم أدركها، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة» قالت: فأغضبته يوماً فقلت: خديجة؟ فقال: رسول الله ﷺ: «إني قد رزقت حبها»[1].وعنها أيضاً قالت: استأذنت هالة بنت خويلد، أخت خديجة، على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: «اللهم هالة» قالت: فغرت، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيرا منها!»[2].

وسبب الحب فطري في أصله، وهو التجانس، وكون المرأة خلقت من الرجل الأول آدم، قال ابن حزم: (فجعل علة السكون أنها منه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف:١٨٩]، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص في الصورة، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل

(١) أخرجه مسلم ح٢٤٣٥.

(٢) أخرجه البخاري ح٣٨٢١ ومسلم ح٢٤٣٧.

غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس. وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها، فمن ودك لأمر ولى مع انقضائه، ومما يؤكد هذا القول أننا علمنا أنَّ المحبة ضروب، فأفضلها: محبة المتحابين في الله عز وجل إما لاجتهاد في العمل وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذهب وإما لفضل علم يمنحه الإنسان، ومحبة القرابة، ومحبة الألفة في الاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة لبرٍ يضعه المرء عند أخيه، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس. فكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها، وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنوها فاترة ببعدها، حاشا محبة العشق الصحيح المتمكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلا بالموت)[1].

وعليه فإنَّ علاقة الرجل بزوجته ليست علاقة شراكة، كما يقال أحياناً: شريكة الحياة، هي أكثر من كونها شريكة، هي جزء رئيسي من حياته، وهو لا يستطيع العيش بدونها، ومثل هذا يقال في حق الرجل، إلا إذا قيلت تجوزاً وتقريباً للمعنى لا تحقيقاً له. هكذا يعلمنا القرآن أنَّ أصل المسألة فطري، لذلك قال ابن حزم: (فصح بذلك أنه استحسان روحاني وامتزاج نفساني)[2].

---

(١) طوق الحمامة ص٦.

(٢) طوق الحمامة ص٧.

وبناء الزوجية ليس كبناء الشركات والمؤسسات كما تريد الثقافة الغربية أنْ تصدره لمجتمعاتنا، فتمثل الحياة الزوجية بالشراكة المبنية على المحاصصة واستقلال القرار الفردي فيها، ففي الوقت الذي يرغب فيه الشريك بالانفصال عليه أنْ يؤدي ما عليه من حقوق وأنْ يفي بما عليه من اشتراطات الشراكة ثم ينفصل دون مراعاة لكثير من الأمور، الزوجان ليسا في شركة أو مؤسسة، الزوجان أسسا حياتهما الجديدة كاملة، وامتزجا ببعضهما، فهذه فطرية الحب وبالزواج اكتمالها.

والمرأة تميل إلى الرجل وتحبه للغاية، وتنتقل من بيت أبيها إلى بيته ومن ولاية أبيها إلى ولايته، وتفضل العيش معه في بيته وبلدته، وتتخلى عن أهلها لأجل ذلك، بل وتجدد لأجل ذلك برنامجها ونظام معيشتها وطريقة حياتها، لتبدأ من جديد مع زوج لم تتصل به من قبل، ولا خالطته، فكيف تقبلت نفسها هذا التغير الجذري في حياتها لولا أنَّ فطرتها توافقها على ذلك، فهي منذ لحظة الزواج الأولى وثقت وأحبت وفوضت.. إنَّ ذلك دليل فطرية الحب والزواج.

ولذلك فالحب لا يصطنع، إنما هو شيء يهبه الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم:٢١]. فهو الجاعل سبحانه لذلك، ومقتضى ذلك أنْ نتوجه إلى الله فنطلب منه نماء هذا الحب، وعباد الرحمن الذين أثنى الله تعالى عليهم يفعلون ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾[الفرقان:٧٤].

الزواج ميثاق

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾[النساء: ٢٠-٢١]. فما الميثاق الذي أخذه النساء على أزواجهن؟ قال مجاهد: (كلمة النكاح التي استحل بها فروجهن)[١] يعني قولهما في العقد: زوجتك، وقبلت على الإمساك بالمعروف إمساكاً صالحاً أو تسريحها بالإحسان وبخير فراق، هذا هو الميثاق الغليظ، فتصبح المرأة بعد هذا الميثاق في أمان واطمئنان، قال قتادة: (وكان في عقدة المسلمين عند نكاحهن: أيم الله عليك لتمسكنَّ بمعروف، ولتسرحنَّ بإحسان)[٢].

يجعل القرآن الكريم الزواج ميثاقاً لا ينفك عن مسئولية، وهذه المسؤولية

(١) جامع البيان ٦/٥٤٤.

(٢) جامع البيان ٦/٥٤٤.

هي مسؤولية الكلمة العظيمة التي نطق بها كل من الزوج والزوجة وولي الزوجة حين قال ولي المرأة بعد موافقتها: زوجتك موليتي، فقال الرجل: قبلت. وهي كلمة من الكلمات التي قال عنها النبي ﷺ: «جدهن جد وهزلهن جد»[1]. وما ذلك إلا تعظيماً لشأن عقد الزواج.

وهذا الأسلوب القرآني بالغ البيان عن المراد من تغليظ مسؤولية عقد النكاح، فهو يذكِّر الرجال بالكلمة التي أعطوها حين العقد وما ترتب عليها من استحلال الأبضاع، فيقول الله سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾[النساء:٢١]، والإفضاء هو المباشرة والجماع كما قال ذلك ابن عباس ومجاهد وغيرهما من أهل التفسير[2]، فكأنه سبحانه يقول: إنَّ المهر الذي بذلتموه أيها الرجال ليكنَّ أزواجكم حلال عليكم لا يحل لكم أنْ تسترجعوه بعد أنْ قبلتم الزواج بهن وكان بينكم من المباشرة والمواقعة ما كان.. إنه لا ينبغي لكم استرجاعه في حال أردتم الطلاق، وإنكم إذا استرجعتموه فقد فعلتم منكراً وقبيحاً، ذلك لإنَّ ميثاق الزواج عظيم ينبغي الالتزام به بأقصى الطاقة، قال الطبري: (وهذا كلام وإن كان مخرجه مخرج الاستفهام فإنه في معنى النكير والتغليظ، كما يقول الرجل لآخر: كيف تفعل كذا وكذا وأنا غير راض به؟ على معنى التهديد والوعيد)[3].

---

(١) أخرجه أبو داود ح٢١٩٤، والترمذي ح١١٨٤ وقال: «هذا حديث حسن غريب، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم».

(٢) جامع البيان ٦/٥٤١.

(٣) جامع البيان ٦/٥٤٠.

وبهذه الآية تحمِّل الشريعة الرجل مسؤولية أخلاقية كبيرة، يدلك على ذلك أيضاً ما شرعه الله من عقوبة للذين يتهاونون بكلمة النكاح، فيصدرون – في حالة مزاجية متعكرة – كلمات ينفون بها معنى الزوجية، كقولهم: "أنتِ علي كظهر أمي" أيْ أنك محرمةٌ عليَّ كتحريم أمي عليَّ، وهي عقوبة مغلظة تكافئ هذا الخطأ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾[المجادلة:٢]. فهؤلاء الذين يتلاعبون، والذين يشغبون على عقد النكاح؛ إذا أرادوا مباشرة نسائهم بعد قولهم ذلك فإنَّ عليهم أنْ يقدموا دليلاً واقعياً على احترامهم وتقديرهم لهذا العقد، فعليهم أولاً أن يحرروا رقبة، فإنْ لم يتمكنوا من ذلك فعليهم أنْ يصوموا شهرين متتابعين، فإنْ لم يستطيعوا فعليهم أنْ يطعموا ستين مسكيناً، عقوبة رادعة لهم وتأديباً على استخفافهم بكلمة النكاح. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣﴾[المجادلة:٣]، تقول الآية: كيف تحرمها على نفسك أيها الزوج؟ وأنت إنما أخذتها بعقد وبكلمة! وأخذتها بميثاق غليظ! فتأمل حجم العقوبة المكافئ لحجم العقد والميثاق.

القرآن يربينا على أنَّ الزواج مسئولية، ويذكِّرك بأنَّ المرأة التي نكحتها بكلمة الله كانت في بيت كما هي الآن عندك في بيتك، وكان يحيط بها رجال كما تحيط بها الآن، وإنما انتقلت إلى بيتك وأحبتك وأحببتها وأفضت إليك وأفضيت إليها بموجب هذا العقد المبارك، فيجب عليك تعظيم هذا العقد والالتزام

بمسؤولياته وتبعاته.

وحين يريد أحدٌ الزواج فعلى أبيه وإخوته وعصبته وأصحابه أنْ يفهموه هذا الأمر، ومن هنا يأتي اشتراط قدرة الخاطب ومريد الزواج على تحمل المسؤولية، لأنها تعبر عن التزام أخلاقي ومعنى رجولي فيه، لأنَّ هذا ميثاق عظيم.

والحق أنَّ المسؤولية ليست مقصورة على الرجل، فكذلك المرأة حين تَقبل الزواج؛ عليها أنْ تتحمل تبعة قبولها زوجة، وعليها أنْ تعظم في قلبها شأن العقد وأنْ تعتني بالرجل الذي قبلته عشيراً لها تفضي إليه ويفضي إليها. وقد حكى الله تعالى – في هذا السياق – قصة امرأت فرعون، وهي امرأة مؤمنة في عصمة زوج كافر، وأيُّ زوج! فهو الطاغية الجبار العنيد، المحارب لله ولرسله وللذين آمنوا، وقد آمنت خفية، فصبرت على البقاء معه لما يحمله قلبها من تعظيم حال الزوجية، فلما علم بأمرها تناولها بالتعذيب فصبرت أيضاً، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾[التحريم:١١]. فهي – وهي في هذه الحال – لم تسأل طلاقاً ولم تهدم بيتاً، وإنما فوضت أمرها إلى الله تعالى في اختيار الطريقة التي تنجو بها من تلك الحال، فاكتفت بسؤال الله النجاة، فكان لها ما أرادت من هدوء الانفكاك من عصمة الزوج الكافر الجبار، فماتت ثابتة معظمة لعقد الزوجية. قال مقاتل: (يعني: المرأة المسلمة التي يتزوّجها الكافر، فإنَّ كُفر زوجها لم يضرها مع إسلامها شيئاً، يقول لعائشة وحفصة: لا تكونا بمنزلة امرأة لوط في المعصية، وكُونا بمنزلة

امرأت فرعون ومريم في الطاعة)[1].

والمؤمنة لا تبادر إلى الاختلاع من زوجها أو مفارقته إلا في أضيق الظروف، لقول النبي ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة»[2]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المنتزعات والمختلعات هن المنافقات»[3]. والمقصود اللاتي يطلبن الخلع والطلاق من أزواجهن بغير عذر[4]. وعن أبي أذينة الصدفي رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «خير نسائكم الودود الولود المواتية المواسية؛ إذا اتقين الله»[5].

ثم إنَّ على المجتمعات أنْ تعظم هذا العقد، وأنْ تبذل وسعها في تنميته وتربيته وإصلاحه وتهذيبه، ومن هنا جاءت الشريعة بالإصلاح بين الزوجين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾[النساء:١٢٨-١٢٩].

وعلى المجتمعات أنْ تمنع وتحارب تلك الدعوات، الظاهرة والمبطنة، التي

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٥٣/٢٢.

(٢) أخرجه أبو داود ح٢٢٢٦، والترمذي ح١١٨٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح٢٧٠٦.

(٣) أخرجه النسائي ح٣٤٦١ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح٦٣٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث ٦٥/٢.

(٥) أخرجه البيهقي ح١٣٦٠٧ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح١٨٤٩.

تدعو إلى هدم بيوت الزوجية لأسباب تافهة أو غير مشروعة، والتي تزين للمرأة وتحضها على الاختلاع من زوجها، فإنها نذير شؤم على المجتمعات والبيوت.

الزواج عبودية للّه

حين نتأمل الآيات القرآنية فإننا نجدها تَعبُر بفطرية الحب وحاجية الزواج إلى جانب التعبد لله به، لأنَّ الوفاء بمتطلبات الميثاق الغليظ يستلزم من الرجل ومن المرأة أنْ يكونا أوفياء بهذا العقد. يدل على ذلك التوجيهات الربانية التي عالجت أخطاء الاستهانة بعقد النكاح، ومن ذلك ما رواه هشام بن عروة[1] عن أبيه قال: كان الرجل يطلق ما شاء، ثم إنْ راجع امرأته قبل أنْ تنقضي عدتها كانت امرأته، فغضب رجل من الأنصار على امرأته، فقال لها: لا أقربك ولا تَحِلّين مني. قالت له: كيف؟ قال: أطلقك، حتى إذا دنا أجلك راجعتك ثم أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك. قال: فشكت ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى الآية: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ

(١) جامع البيان ٤/١٢٥.

لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾[البقرة:٢٢٩-٢٣٠].

ذلك كان سبب نزول الآية، أما ما يعنيه ويرمي إليه قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فكما يقول الطبري: (هذه الأشياء التي بينت لكم حلالها من حرامها حدودي، يعني به معالم فصول ما بين طاعتي ومعصيتي فلا تعتدوها؛ يقول: فلا تتجاوزوا ما أحللته لكم إلى ما حرمته عليكم، وما أمرتكم به إلى ما نهيتكم عنه، ولا طاعتي إلى معصيتي، فإنَّ من تعدى ذلك؛ يعني من تخطاه وتجاوزه إلى ما حرمت عليه أو نهيته فإنه هو الظالم)[1].

فأنت تلاحظ اعتناء القرآن بحثيات الزواج والطلاق، ثم تلاحظ أنه يحذر من تعدي حدود الله في هذا الشأن ويسمه بالظلم.

والصبر على تحمل مسؤولية الزواج من كلا الزوجين، وما في ذلك من بعض المخاشنة أحياناً ومعاناة التربية ورعاية الأولاد وصيانة الكيان وتجاوز المشكلات.. فالصبر على ذلك عبادة لله تعالى وامتثال لأوامره، قال تعالى:

(١) جامع البيان ٤/١٦٤.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[النساء:١٩]. وإلى هذا المعنى أشار السعدي رحمه الله فقال: (من ذلك امتثال أمر الله وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة، ومنها أنَّ إجباره نفسه –مع عدم محبته لها– فيه مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة، وربما أنَّ الكراهة تزول وتخلفها المحبة؛ كما هو الواقع في ذلك)[1].

ويصور الإعلام اليوم ألواناً وردية للحياة الزوجية، تعلي من شأن السعادة المادية المبنية على مبدأ "الاستهلاك يصنع السعادة" والتي لا تعبأ بأهمية الجانب الروحي والوجداني فضلاً عن الاستقامة على أمر الله في الشأن الزواجي، وتَروج السينما الرومانسية وفقاً لذلك، فيأتون بأجمل الشباب، وأجمل البنات، وأجمل المساكن، وأجمل المقتنيات، ثم لا نقص في المال، ولا عناء في تربية الأولاد ورعايتهم، ولا أمراض تعترض طريقهم، مع زهاء في ألوان الشاشة واحتيال في زوايا التصوير، ليصوروا للناس أنَّ ما يُعرض هو نمط الحياة الزوجية التي ينبغي أنْ يعيشها الزوجان، بينما لا يحصل شيء من ذلك عالم الإنسان، إلا ما ندر وشذ، فإنَّ بيوت الناس مبنية على واقع إنساني تعترضه آفات ومتاعب، وهذه هي الطبيعة البشرية؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾[البلد:٤]، قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال قتادة: في مشقة فلا تلقاه إلا يكابد أمر الدنيا والآخرة. وقال ابن عباس: في شدة خلق؛ حمله

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢٩٣/١.

وولادته ورضاعه، وفطامه وفصاله ومعاشه وحياته وموته[١]. وبالتالي فإنَّ الصبر على تحمل المعاناة الزوجية صبرٌ يحبه الله ويثيب عليه، قال رسول الله ﷺ: «ونساؤكم من أهل الجنة الودود الولود العؤود على زوجها، التي إذا غضب جاءت حتى تضع يدها في يد زوجها، وتقول: لا أذوق غمضا حتى ترضى»[٢].

الرجل عليه طلب الكسب والسعي للرزق، عليه أنْ يسعى في الأرض، عليه أنْ يخرج للعناء جزءاً من يومه، ليجلب الطعام والكساء والدواء فضلاً عن إيجاد المسكن، وكل ذلك من مقومات القوامة والولاية على زوجه وأولاده، ويثيبه الله بقدر جهده في ذلك، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعل في فِيّ امرأتك»[٣]. وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نفقة الرجل على أهله صدقة»[٤]. وعن المقدام رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما أطعمت نفسك فهو صدقة وما أطعمت ولدك وزوجتك وخادمك فهو صدقة»[٥].

والمرأة تمكث في البيت فتصونه وتصلح الطعام وتربي الأطفال وتكابد في ذلك التعب والمشقة، وتشاطر الزوج أعمال البيت فيكون عليه أعمال الخارج

---

(١) معالم التنزيل ٨/٤٣٠.

(٢) أخرجه أبو تمام، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ح٢٨٧.

(٣) أخرجه البخاري ح٥٦.

(٤) أخرجه البخاري ح٤٠٠٦.

(٥) الأدب المفرد ح١٩٥.

ويكون عليها أعمال الداخل، وتنثر في جوانبه البهجة والحنان والسكينة، وتصبر على هذا البرنامج اليومي والمستمر، فتنتج الأولاد الصالحين وتعين الزوج فيكون لها مثل أجورهم بتعليمها ودلالتها وإعانتها.. تلك عبوديات عظيمة.

في مشرق الأرض ومغربها بيوت كثيرة لا تقوم على أساس الزوجية التي شرعها الله تعالى، وإنما تقوم على شيوع الأعراض وإباحة الزنا، فلا أولاد ينتمون إلى سلسلة الآباء؛ أيْ أنهم هكذا بلا عصبة وبلا أسرة، ولا أمهات يحظين بالرعاية الرجولية اللازمة، فيظللن طيلة الزمان يلهثن سعياً في طلب الرزق، ليطعموا به أنفسهن ومن يعُلن، من حلال كان أم من حرام، ولربما احتجن في ذلك السعي إلى بذل أعراضهن وشرفهن.

فإذا صبر كل من الزوجين على صيانة الكيان بما يستطيعون، وبما شرعه الله، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، واستشعرا أنهما يبنون بيتاً مسلماً فإنَّ ذلك مدعاة إلى استقرار النفوس وصلاح المعاش، بل واستقرار المجتمع وصلاحه. ولذلك فإنَّ من أكثر الوصايا التي توجه لكل من الزوجين: اصبر على زوجتك، اصبري على زوجك، فيدركان أنهما عبدان لله، حتى في أمورهما وشئونهما الخاصة اللي هي الزواج والفطرة والنوازع والغرائز.

ثم إذا حصل طلاق؛ فإنَّ هناك عبوديات متعلقة بهذه الحالة، كالتمتيع والتسريح بإحسان والنفقة المؤقتة والسكنى المؤقتة على الزوج الذي طلق، ثم بعد ذلك تدخل المرأة في زواج جديد تتعبد لله تعالى به.

حتى الاستمتاع المضمن في الزواج لا يخلو من التعبد، والقرآن يصف الجماع

في النكاح بالاستمتاع، قال الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[النساء:٢٤]. قال الحسن ومجاهد: (أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح)[١]. وقال ابن عاشور: (الاستمتاع: الانتفاع، والسين والتاء فيه للمبالغة، وسمى الله النكاح استمتاعاً لأنه منفعة دنيوية، وجميع منافع الدنيا متاع، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾[الرعد:٢٦])[٢]. وقد قال نبينا ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[٣].

فهذا الاستمتاع أخبر نبينا ﷺ أنَّ فيه أجراً، وإليه أشار بقوله: «وفي بُضع أحدكم صدقة»[٤]، يعني أنَّ الإنسان إذا جامع امرأته أثابه الله، وكتب له أجراً، وقد استغرب الصحابة هذه الجملة لما هو معهود في الأذهان من ترتب الأجر على المشاق والأعمال التي تخالف هوى النفس وليس العكس، فقالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

هذه الحاجة الفطرية – أعني المواقعة – تلبيتها من وجهها المشروع أمر يحبه الله ويريده قدراً وشرعاً، فإنَّ الله سبحانه تعالى خلق فينا هذه الحاجة الفطرية ثم هدانا إلى المسار الصحيح في تلبيتها؛ ونهانا عن غيره من الطرق المحرمة

---

(١) معالم التنزيل ١٩٣/٢.

(٢) التحرير والتنوير ٩/٥.

(٣) أخرجه مسلم ح١٤٦٧.

(٤) أخرجه مسلم ح١٠٠٦.

المختلفة، ولذلك فإنَّ جماع الرجل لزوجته يزيد الحب والاتفاق، قال ابن القيم: (وأما الجماع المباح فإنه يزيد الحب إذا صادف مراد المحب، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبة أخرى لم تكن حاصلة قبل الذوق، ولهذا لا يكاد البِكران يصبر أحدهما عن الآخر، هذا ما لم يعرض للحب ما يفسده)[1]. وقال: (الجماع الحرام يفسد الحب، ولابد أنْ تنتهي المحبة بينهما إلى المعاداة والتباغض والقلى، كما هو مشاهد بالعيان)[2].

وفي هذا العصر الذي تتنادى فيه هيئات ومؤسسات عالمية إلى هدم الفطرة والاستغناء عن الزواج –الذي جعله الله مفتاحاً لبناء الأمة ومجتمعاتها– فإنَّ تمسك المسلم والمسلمة بالزواج والحث عليه والدعوة إليه وتنميته وتيسير شأنه يعد من العبادات العظيمة؛ لصعوبة الحال والظرف والواقع.

كما تشتد الحاجة في هذا العصر إلى تصدي طائفة من طلاب العلم وأهل الفكر والفضل إلى تعليم الناس فقه الزواج وأحكامه، ومعالجة قضاياه المعاصرة والمستجدة، وصناعة المشاريع والمبادرات التي تنمي الزواج في المجتمعات وتكثره وتصونه.

ومقتضى كونه عبودية لله أنْ يبادر الزوجان إلى الاحتكام في كل الشؤون الزوجية إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وفيهما البيان الشافي لمن تعلم وتفقه، ولذلك يقول الله تعالى في سياق الحديث عن مسائل الزواج: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ

(١) روضة المحبين ص١٤٢.

(٢) المرجع السابق.

مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾[البقرة:٢٣٢]. ويقول أيضاً: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾[النساء:٢٦-٢٨]. وقد كان أصحاب النبي ﷺ ونساؤهم يرجعون دائماً في حل مشكلاتهم والسؤال عن الحكم إلى النبي ﷺ لعلمهم أنَّ الاحتكام في الشؤون الزوجية إلى الوحي عبادة واجبة، وقد مر في هذه الصفحات شيء من ذلك.

الزواج تكامل

ستجد في القرآن آية يعتمد عليها كل أحد يوجه نظره في الآيات التي ذكرت الزواج، وهي قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الروم:٢١]. وقد صدق الله تعالى فإنَّ شريعة الزواج فيها من الآيات والهدايات والعبر والعظات الكثير لمن تأملها ونظر فيها.

ومن تلك الآيات التي ينبغي التفكر فيها أنَّ الله خلق المرأة من ذات الرجل، فيكون أصل المرأة من الرجل، وذلك كقولنا أنَّ أصل آدم من التراب، فالزواج عودة الفرع إلى الأصل والتئامه به، قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾. وقد أخرج الطبري عن ابن عباس وابن مسعود أنَّ الله تعالى أسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة؛ خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟

فقالت: امرأة. قال: ولمَ خُلقت؟ قالت: لتسكن إلي[1]. وقد أخبر النبي ﷺ أيضاً عن ذلك فقال: «استوصوا بالنساء، فإنَّ المرأة خُلقت من ضلَع، وإنَّ أعوج شيء في الضلَع أعلاه، فإنْ ذهبت تقيمه كسرته، وإنْ تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»[2]. ولاحِظ كون المرأة خلقت من ضلع الرجل؛ فإنَّ ضلع الرجل فيه عوج في أعلاه، فما هو موجود في المرأة من عوج فأصله من الرجل، فصارت كلها من الرجل باستقامتها واعوجاجها.

والزوجة بهذا الوصف جزء من زوجها، ويمكن وصف علاقتها به بأنها علاقة الجزء بالكل، وعلاقة الفرع بالأصل، وهي علاقة تفيد الانتماء القلبي المقتضي للمودة والرحمة، والمجلل بالحب والسكون. وعليه فيجب على الرجل أنْ يرعاها كما يرعى أي جزء منه، وينظر إليها باعتبار الانتماء والالتئام والتوافق.

والزواج تكامل في نظام الحياة، لأنه متضمن التنوع الإنساني بشقيه: الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾[النجم:٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾[الليل:١-٣]. وفي هذه الآيات ذكر الله تعالى الليل والنهار والذكر والأنثى، وهما زوجان من الأشياء مختلفان ويحصل باجتماعهما التكامل، وذكرها جاء في سياق القسم على أنَّ أعمال الناس مختلفة متنوعة، وكما أنه يكتمل

(١) جامع البيان ٥٤٨/١.

(٢) أخرجه البخاري ح٣٣٣١ ومسلم ح١٤٦٨.

نظام اليوم باجتماع الليل والنهار، ويكتمل نظام الحياة باختلاف أعمال الناس ووجهاتهم فكذلك تكتمل حياة الإنسان باجتماعه إلى زوجه. ولذلك فالمرأة مختلفة عن الرجل، أي أنهما عنصرين مختلفان، وباجتماعهما يحدث التكامل، وبانفصالهما يوجد النقص.

ورتب سبحانه على هذ الاختلاف مسؤوليات وواجبات تكليفية، وجعل فطرة كل من الذكر والأنثى منسجمة مع ذلك ومنقادة لتلك التشريعات، ولذلك اعتذرت امرأت عمران حين ولدت مريم، وقد كانت نذرت من قبل أنْ يكون حملها محرراً ومفرغاً لخدمة بيت المقدس ظناً منها أنها حامل بذكر، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾[آل عمران:٣٦]. وما ذلك إلا لعلمها بهذا الاختلاف وأنْ الذكور عليهم مسؤوليات لا يستطيعها النساء، وأنَّ على النساء مسؤوليات لا يستطيعها الذكور. فلذلك حكم النبي ﷺ بين علي بن أبي طالبٍ وبين زوجته فاطمة حين اشتكيا إليه الخدمة، فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنة خدمة البيت، وحكم على علي بالخدمة الظاهرة، قال ابن حبيب: والخدمة الباطنة: العجين والطَّبيخ والفرش وكنس البيت واستقاء الماء، وعمل البيت كله[1].

وعندما يدرك كل من الزوجين أنَّ للآخر طباعه وطريقته في التفكير والتواصل وتكوين جسده وقوته يشعر بالرضا والارتياح، ويكون أقدر على

(١) زاد المعاد ٥/٢٦٢.

التواصل الإيجابي، بل يلمس جمال هذا التنوع وأثره في تجديد الحياة وتغير مسالكها لارتباط كل منهما بالآخر، فالتنوع جمال في حد ذاته لأن كلاً منهما يرى جمالاً لا يعرفه في نفسه، فتكتمل اللذة والسرور.

ولو كان الزوجان على هيئة خلقية واحد وطبيعة خلقية متشابهة لربما حصل الملل، ولربما تولد النزاع لتشابه الرغبات، ولله الحكمة البالغة. وهذا التكامل يقتضي أنَّ المرأة لا تساوي الرجل ولا هو يساويها، وأنَّ لكل منهما خصائصه ووظائفه الملائمة لخصائصه، والدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل دعوة مخالفة للفطرة منابذة للشرع المطهر، والعيش في إطار منظومة اجتماعية تعتمد على هذا المبدأ مؤدٍ إلى خراب نظام الحياة ومولّد للشقاء والبؤس والظلم والاضطراب الاجتماعي.

ولقد ساورت بعضَ النساء في عهد نبينا ﷺ أفكار من هذا القبيل؛ قبل اكتمال نزول الوحي، فنزل الوحي معالجاً لهذه الفكرة، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾[النساء:٣٢]. قال مجاهد: (قول النساء: ليتنا رجال فنغزو ونبلغ ما يبلغ الرجال)[1]. وثمة روايات أخرى تذكر أشكالاً من هذا التمني، كقول السدي: (إنَّ الرجال قالوا: نريد أنْ يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء، كما لنا في السهام سهمان، فنريد أنْ يكون لنا في الأجر أجران. وقالت

(١) جامع البيان ٦/٦٦٤.

النساء: نريد أنْ يكون لنا أجر مثل الرجال، فإنا لا نستطيع أنْ نقاتل، ولو كُتب علينا القتال لقاتلنا، فأنزل الله تعالى الآية)[١]. وقال مجاهد: (قالت أم سلمة: يا رسول الله، تغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث؟). وهذا كله تحكم لا يجوز، فلذلك نزلت الآية محذرة من سلوك سبيل طلب المساواة أو العلو بما لم يجعله الله كذلك. قال القاضي ابن عطية: (لأنَّ في تمنيهم هذا تحكماً على الشريعة، وتطرقاً إلى الدفع في صدر حكم الله)[٢]. وقال الطبري: (نهى الله عباده عن الأماني الباطلة، وأمرهم أنْ يسألوه من فضله، إذْ كانت الأماني تورث أهلها الحسد والبغي بغير الحق)[٣].

ولما المرأة شعرت المرأة –أمام الضخ الثقافي الغربي– بالعقدة، وأوحت شياطين الإنس والجن لها بأنَّ ثمة مشكلة بينها وبين الرجل، ولم ترجع إلى كتاب ربها؛ بغت على الرجل وحسدته وتمنت الأماني الباطلة، وطلبت المساواة بينها وبين الرجل ورغبت أنْ تكون مثله وأنْ تستغني عنه، وتظاهرت بكراهيته، وأقامت المآتم على مستقبلها وحرضت على الرجل ونصبت لها العداء والظلم، وصدق الطبري حين قال: " إذْ كانت الأماني تورث أهلها الحسد والبغي بغير الحق".

والتنوع أيضاً يكون في إنجاب الأولاد، فإنَّ التنوع في خلقتهم وأخلاقهم يؤثر في تكامل وظائف البيت ويكسبه جمالاً، فإذا كان منهم الصغير ومنهم

---

(١) جامع البيان ٦/٦٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٤.

(٣) جامع البيان ٦/٦٦٣.

الكبير، ومنهم الذكر ومنهم الأنثى، ومنهم من يفيد عقله وتفكيره ومنهم من يفيد عمله وبذله، ومنهم المنبسط ومنهم المتحفظ.. فإنَّ كل هذا سيكسب البيت جمالاً وتكاملاً، وهذا من رحمة الله بالزوجين، ومن حكمته في الاختلاف الفطري الذي به تتحصل أجزاء من السعادة.

ونجد في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة:١٨٧] معنى الامتزاج الذي يفيد الاكتمال، وقد قال بعض المفسرين: (سمي كل واحد من الزوجين لباسا لتجردهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه، وقال الربيع بن أنس: هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن)[1]، فتأمل هذه المعاني تجد أنَّ كلاً من الزوجين يتطلب الآخر في اكتمال المعنى، وهكذا يستدعي القرآن أحسن العبارات في وصف هذه الحالة السامية.

شدة المخالطة والامتزاج هي العلاقة الحقيقية بين الرجل والمرأة عندما يكونا زوجين، ولا يمكن أنْ يكونا كذلك في علاقة خارج الحياة الزوجية؛ أي من الانتماء والحب والرحمة، قال تعالى ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[النساء:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم:٢١].

ومن مظاهر التكامل في الزواج تلك الدوافع والأخلاق التي فتدفع الرجل إلى أنْ يحافظ على زوجته ويرعاها ويحميها ويغار عليها، وتدفع المرأة إلى أنْ تلوذ بالرجل وتطلب حمايته ورعايته ومشاعره.

---

(١) معالم التنزيل ١/٢٠٧.

****